مهاتما غاندي

تلخيص تاريخه كما رواه بنفسه

— ٣ —

باكورة الشباب

كنت في المدرسة منذ السادسة او السابعة الى السادسة عشرة من عمري ، حيث تعلمت كثيراً من الاشياء ، ما عدا الدين . ولقد اخفقت في ان اتلقى من اساتذتي ما يمكن ان يعدوني به من معلومات ، من غير ان اكدهم واجهدهم . ومع هذا استطعت ان التقط مبادىء دينية استمدتها من بيئتي تسقطاً من هنا وهناك . واعني «بالدين» ، اصطلاحاً في اوسع ما يحتمل من المعاني ، انهُ عبارة عن «تحقيق الذات»

ولدت في ظلال معتقد «الفايشنافا» Vaishnava — ولذلك كثيراً ما كنت اغشى معبد الاسرة . ولكن العبادة في المعابد لم تكن تلائم مزاجي . فاني اكره فيها مظاهرها وفخامتها المصطنعة ، وكذلك سمعت ان كثيراً ما يقع في المعابد من الاعمال ما لا يتفق والآداب ، فزهدت فيها زهداً تامّاً

ولكن ما فاتني من العلم بزهدي في المعابد تلقيتهُ من مربيتي ، وهي خادمة عجوز من الاسرة ، لا ازال اذكر عطفها وحنوها عليَّ الى الآن . اقترحت عليَّ يوماً ان اكرر اسم «راما[1]» كعلاج اتخلص به من خوفي من الاشباح . ولكن كان لي من الثقة بها ، اكثر مما كان لي بحقيقة العلاج الذي وصفتهُ ، غير ان سني سمحت لعقلي ان يتأثر بما وصفت من علاج اذ يذهب بما احس من خوف . والبزرة الصالحة اذا غرست في سني الشباب فلا بد من ان تترك أثرها الثابت في النفس . واتخيل ان ما غرست هذه المرأة الصالحة في نفسي من الالتجاء الى ذكر « راما » لاطرد الخوف ، قد ثبت في نفسي ، حتى اني كثيراً ما الجأ الى الاسم اكرره في ايام محني ، فيروّح عني ، ويزيح ما يثقل على صدري من الهموم

(١) « راماناما Ramanama » كلمة تكرر تعبداً وتقرباً الى الله . « وراما » عبارة عن تجسد الله في الذات البشرية وحلولها فيها كما وصفت في قصيدة «راماناما» الايقاعية التي وضعها تولاسيدس Tulasidas وهذه القصيدة في الهندية مقتبسة من الاصل السنسكريتي الذي وضعه « فلميكي » Valmiki

في ذلك الوقت حاول احد اعمامي ، وكان من اتباع « الراماياتا» — Ramayana — أن يلقنني وأخي الثاني مبادىء «راما را كشا» —Rama Raksha— فأخذنا نصم المبادىء صماً ، واتخذنا تلاوتها عن ظهر قلب عادة عكفنا عليها كل صباح بعد الاستحمام . وظللنا نتلو ما حفظناه طيلة ما بقينا في « بوربندار » ولكنا نسينا كل شيء بمجرد ان حللنا في « راجكوت » ذلك لانني لم اكن اعتقد بهذه المبادىء ، وكنت اتلوها لازهو فقط بأني استطيع ان اتلو «راماراكشا» من غير خطاء في تخريج الحروف والكلمات . واما الذي ترك اثراً في نفسي لا يزول ، فقراءة «الرامايانا» تأليف «تولاسيداس» مع ابي . وكان ابي خلال مرض وفاته قد امضى بعض الزمن في «بوربندار» ، وتعود ان يسمع تلاوة « الرامايانا » كل ليلة وكان الذي يتلوها « لاوا مهاراج » من اخص اتباع « راما » واكثرهم تأثراً به . وكان يقول بأنهُ استطاع ان يشفي نفسهُ من مرض الجذام بغير عقاقير ، بل بأنهُ لف على الاعضاء المصابة اوراق شجرة مقدسة في معبد « بولشفار » وهبت للآلهة الكبير ، وبأن اخذ يكرر اسم « راما » . وقد يكون هذا صحيحاً اوغير صحيح غير اننا صدقنا صحة الرواية على كل حال ، لان جسم الرجل كان في ذلك الوقت سليماً من الجذام . وكان ذا صوت شجي ونبرات حزينة ، وكان يرتل ثنائيات او رباعيات ، مستغرقاً كل استغراق ، حتى انهُ يجرف معهُ كل سامعيه . وكنت في الثالثة عشرة من عمري اذ ذاك . ولكني اذكر ان تراتيله اختبلتني واوقعتني في شراكه . وكان هذا سبباً في افتتاني « بالرامايانا » . واني لاعتقد الآن هذا الكتاب اعظم كتاب تعبدي ظهر في العالم

تعلمت في «راجكوت» كيف اكون متسامحاً ازاء كل فروع المذهب الهندوكي والديانات الاخرى . وكنت مع ابي وامي كثيراً ما نزور معابد شيفا وراما ، وكثيراً ما كان يزورنا رجال من مختلف المذاهب ويتناولون بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكان يزورنا مسلمون يحدثوننا عن حقيقة معتقدهم . وكنت اسمع هذه الاحاديث وما يدور حولها من المناقشات بجانب سرير ابي وانا امرّضه . وكان هذا سبباً في ان لا اشعر بأثر للتعصب لمذهب او ضد مذهب ما

شذّت النصرانية وحدها عن هذه القاعدة عندي . فقد تكوَّن في عقلي نوع من الكراهية لها . ولذلك سبب ، فقد اعتاد مبشرو هذه الديانة ان يقفوا على مقربة من المدرسة العليا وهنالك يمطرون الهندوكيين سبّاً ولعناً ويوسعون آلهتهم تحقيراً . ولم اكن استطيع ان اهضم هذا . وقفت مرة استمع اليهم . وكانت الاولى والاخيرة فلم احاول ان اعيد التجربة مرة اخرى . وسمعت في ذلك الحين عن هندوكي معروف انتحل الديانة المسيحية . وكان حديث المدينة كلها يدور حول تعميده وكيف انهُ اكل لحم العجل وشرب النبيذ ، وانهُ ابدل زيه

فبدأ يلبس الملابس الاوربية ويغطي رأسه بقبعة . ولقد أثر كل هذا في اعصابي ايما تأثير. حتى لقد حدثتني نفسي بأن ديناً يرغم معتنقيه على اكل اللحم وتعاطي المشروبات الروحية وتغيير زيهم ، ليس جديراً بأن يكون ديناً ، وليس خليقاً بأن يسمى ديناً . وطرق سمعي ان ذلك المؤمن الجديد أخذ يهزأ بدين اسلافه وعاداتهم ووطنهم وكانت كل هذه الاشياء سبباً في اني شعرت بكراهية نحو النصرانية

على الرغم من اني رضت نفسي على ان اكون متسامحاً نحو الاديان الاخرى ، فان ذلك لم يكن معناه اني كنت اعتقد في وجود الله . وحدث اني قرأت في ذلك الحين كتاباً دينياً [1] كان بين مقتنيات ابي ، ولم تترك قراءتي لما تضمن من اقاصيص الخلق وأصل الانسان اي اثر في نفسي ، بل على الضد من ذلك احدثت في نفسي نزعة الى الالحاد وانكار وجود الله

وكان لي ابن عم احترم فيه الكفاءة العقلية وقوة الحكم . فلجأت اليه اثير شكوكي واستعين به عليها ، فلم يستطع ان يذلل مصاعبي او يحل مشكلة من مشاكلي العقلية . واخيراً تركني قائلاً «عند ما تكبر يمكنك ان تحل هذه المشكلات بنفسك وهذه مسائل لا يجب ان تكون من مشاغل من هم في مثل عمرك » فسكت ولكن لم يهدأ بالي

على اية حال لم يستطع هذا الكتاب بشرائعه وأقاصيصه ان يعلمني « الاهمسا [2] » Ahimsa ولكن شيئاً واحداً ثبتت اصوله في نفسي اذ ذاك . هو الاعتقاد بأن الاحساس الادبي اساس كل الاشياء ، وان الحق هو المادة الاولية التي تتكوّن منها شريعة الآداب العليا . ولقد اصبح الحق غايتي الوحيدة في الحياة . فأخذ يعظم في نفسي ويزيد قدره في يقيني يوماً بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت اخذ ادراكي لمعنى الحق يعظم وتتراحب اطرافه

شغفت بعد ذلك بقطعة شعرية باللغة الجوجراتية ملكت مني عقلي وكل قلبي . وكان عنوانها « قابل الاساءة بالاحسان » فأصبح مبدئي الاول الذي يقود خطواتي ، بل اصبح شهوة محتدمة جامحة ، حتى اني اخذت اطبقها في الحياة العملية

* * *

بعد ان اجتزت امتحان القبول ، أشار عليّ من هم اكبر مني سنًّا ان اتابع درسي في الكلية . وكان امامي جامعتان احداها في «باقنجار» والاخرى في بومباي . وكانت اولاهما اقل نفقة فاخترتها ، على ان التحق بكلية « ساماَلداس » . فذهبت ، ولكن لم البث ان وجدت نفسي في بحر لجيّ . كل شيء كان صعباً . وكل شيء كان عميقاً . ولم استطع ان استوعب

(١) اذا نومسمرتي — Manusmriti — شريعة هندوكية قديمة جداً تحدد نظام الطائفة المسماة بهذا الاسم . والكتاب يحتوي على اساطير في اصل الخلق واصل الانسان

(٢) راجع ما علقنا به على هذه الكلمة في المقال الاول الذي نشر في مقتطف أبريل الماضي

محاضرات الاساتذة . ولم يكن ذلك براجع اليهم . فان اساتذة هذه الكلية كانوا يعتبرون من الطراز الاول . ولكني كنت طالباً غير ناضج . وفي نهاية الدورة الدراسية الاولى عدت الى البيت

وكان «ماقجي واتي» وهو برهمي اريب واسع الاطلاع، مرجع الاسرة وعمل استرشادها . فزارنا خلال الاجازة المدرسية ، وسأل ابي واخي الاكبر عن دراستي وكيف اسير فيها ، فلما علم اني من كلية « ساملداس » اقترح ان اسافر الى انجلترا لاتخرج في القانون . وكانت هذه امنيتي فانعم الاقتراح قلبي سروراً لأمرين . الاول اني كنت الاقي صعوبات جمة في الكلية ، والثاني اني اردت ان ارى بلاداً جديدة . غير اني اردت ان التحق بكلية ادرس فيها الطب فاعترض اخي قائلاً ان ابي كان يبغض هذه المهنة ، وكان يقصدك بقوله ان « الفايشنافا » لا شأن لهم بتشريح الجثث ، بل اراد ان تكون محامياً . وكان الاعتراض الثاني على درس الطب ان هذه المهنة لا تهيئني لان اكون « ديواناً » كما كان ابي . واني اذا اصبحت « ديواناً » او اكثر من ديوان استطعت أن اقوم باعباء اسرتي

***

وما تم هذا الحديث وانصرف البرهمي ؛ حتى اخذت ابني العلالي والقصور ، ولكن في الهواء . وبدأ اخي يفكر الى اين يرسل بي ، وهل من الحصافة ان يرسل بشاب مثلي وحيداً في بلاد اجنبية ؟ اما امي فقد اضطرب فكرها واختلط عليها الامر ، لانها كانت تمقت فكرة افي مفارقتها ومبتعد عنها . وحاولت ان تقيم العقبات في سبيل سفري فقالت « ان عمك أسن من في الاسرة الآن ، فيجب اولاً ان نشاوره في الامر ، فاذا وافق امكننا ان ننظر في الامر »

فلما قابلت عمي واطلعته على جلية الامر فكّر قليلاً ثم قال ولست ادري ان كان هذا العمل يتفق ومبادىء ديننا . وكل ما يصل اليه علمي في هذا الموضوع لا يخلو من شكوك فاني عندما اقابل كبار المحامين لا ارى فارقاً بين حياتهم وحياة الاوربيين . انهم لا يتقيدون بقيد فيما يأكلون . ولفائف التبغ لا تفارق شفاههم . ويلبسون بلا خجل كما يلبس الانجليز . وكل هذا مناقض لتقاليد اسرتنا . واني لمزمع حجاً ، ولم يبق لي في الحياة الا سنوات معدودات وكيف تتصور وانا على حافة القبر ان آذن لك ان تذهب الى انجلترا وان تقطع بيننا وبينك البحار ولكني لن اقف في طريقك فالامر اذن يرجع الى موافقة امك . فاذا وافقت فسارع بالسفر قل لها اني لن اتدخل في الامر . اما اذا سافرتَ فاني اباركك »

فلما رجعت الى « راجكوت » ونقلت الى امي ما قال عمي ، ترددت وتحيرت . فقد قيل لها ان الذين يذهبون الى انجلترا يبيعون الفضائل بالرذائل . وقيل لها انهم يأكلون اللحوم

وانهم لا يستطيعون ان يعيشوا من غير ان يتعاطوا المشروبات الروحية. وسألتني كيف اتصرف ازاء هذا ؟ فقلت لها « يا امي العزيزة . ألا تثقين بي . فاني لن اكذبك شيئاً . واني لأقسم لك بانني لن اقرب شيئاً من هذه الاشياء » فقالت : استطيع ان اثق بك واعتمد عليك . ولكن كيف تكون هذه الثقة وانت في بلاد نازحة وديار بارحة . اني مرتبكة ولست ادري ماذا افعل ؟ سوف اسأل « سوامي » Swami

وكان « سوامي » بالمولد والدم في طائفة « البانيا » كالغانديين . ولكنهُ انقلب كاهناً من طائفة « الجانيين » Jani . وكان من مستشاري الاسرة كالبرهمي الذي مرَّ ذكرهُ . فلدى مساعدته وقال سآخذ عليهِ العهود الثلاثة واقيده بالوثائق وبعدها يستطيع ان يذهب حيث شاء . فاقسمت وتعهدت بان اعيش في انجلترا عيش الفردية الصرفة وان لا امس الخمر او اللحم . فلما انتهيت من قسمي ، باركتني امي وسمحت لي بمغادرة بلادي

وسارعت الى « بومباي » تاركاً زوجي ومعها طفل لا يتجاوز عمره بضعة اشهر . ولكني لم اصل الى هذا الثغر حتى التفَّ بلخي الاصدقاء وقالوا له ان المحيط الهندي يكرن ثائراً خلال شهري يونيه ويوليه . ولما كانت هذه سفرتي الاولى ، وجب ان ارجئ سفري الى نوفمبر . وقال آخر ان باخرة غرقت خلال عاصفة . وكان هذا سبباً في ان يتململ اخي ، ورفض ان يتحمل مسؤولية السماح لي بالسفر ثانياً . فتركني في « بومباي » مع صديق وعاد هو الى « راجكوت » ليؤدي اعماله ، وترك نفقات السفر مع احد اقاربه ، واوصى بي الاصدقاء ان يقدموا اليَّ ما احتاج اليهِ من المساعدات ومرت بي الايام والساعات طويلة متثاقلة في « بومباي » لاني كنت احلم بانجلترا وما فيها

***

واخذ رجال طائفتي الدينية يبدون اعتراضاتهم على سفري الى الخارج ، بل بلغ بهم الامر الى اظهار مقتهم وغضبهم . فانهُ حتى ساعة عزمي على السفر لم يغادر واحد من طائفتنا شواطئ الهند ، فاذا اقدمت على السفر وصممت عليهِ ، وجب ان يحتكموا معي الى الكتاب . فقصدت جمهرة من رجال الطائفة ودعوني الى الظهور امامها لاجيب عما يوجه اليَّ من اسئلة . ولست ادري كيف استجمعت قدراً كافياً من الشجاعة حملني على الذهاب الى جمهرتهم . على اية حال لم أتوان عن الذهاب اليهم ، فاخذ رئيس الطائفة ، وكان من اقاربي البعيدين ، ولكنهُ كان على صفاء مع ابي ، يلقي هذه الكلمات :

« من رأي الطائفة ان عزمك على السفر الى انجلترا امر لا يتفق وعقائدنا . ثم ان ديننا يمنعنا عن السفر الى خارج بلادنا باي حال من الاحوال . وكذلك وصل الى مسامعنا انهُ من

المستحيل ان يعيش الانسان هناك من غير ان يحنث ما حرّم دينا فان المرء يضطر اضطراراً ان يأكل ويشرب على طريقة الاوربيين » . فكان جوابي — « لا اظن مطلقاً ان الذهاب الى انجلترا يكون فيه اي تناقض مع مبادئ دينا . وغرضي من الذهاب الى هناك ان اكمل دراستي . هذا فضلاً عن اني وعدت امي ان ابتعد عن ثلاثة اشياء هي اخوف ما تخافون . واني لعلى يقين من ان قسمي سوف يحفظني من السقوط »

قال الرئيس « ولكن تؤكد لك انك سوف لا يمكنك ان تقوم بفروض الدين هناك . وانت تعلم علاقتي بابيك وغيرتي عليك . ولذا ارغب في ان تسمع نصحي وترضخ لارشادي » فكان جوابي — « اني لاعرف علاقتك بأبي ، ولكن لا حيلة لي في الامر . لاني لا استطيع ان ارجع عن عزمي على الذهاب لانجلترا . فان احد اصدقاء ابي ذوي العلم والمعرفة ، وهو برهمي ذو وزن وقيمة ، لا يرى مانعاً يحول دون ذهابي ، وعلى رأيه وافق أخي ووافقت أمي »

« ولكنك ستخالف نظام الطائفة »

« لا حيلة لي ولا مخرج . وان الطائفة سوف لا تتدخل في هذا الشأن » . ولقد اسكتت هذه الكلمات الرئيس ، فاخذ يحدجني بنظراته وانا جالس لا اتحرك ، ثم أعلن ما يأتي :

« سوف يعامل هذا الغلام على انه خارج على الطائفة مطرود من حظيرتها منذ اليوم . وكل من يذهب ليودعه على الميناء سوف يعاقب بغرامة مقدارها روبية وأربعة آنات »

فلم يؤثر فيّ هذا الامر أقل تأثير وتركت الرئيس توًّا . ولكن اشفقت من ان يكون للامر أثر في نفس أخي . ومن حسن حظه ان الامر لم يهزه ولم يغير رأيه ، بل كتب يؤكد لي انه يأذن لي في السفر على الرغم من معارضة رئيس الطائفة واعضائها في « بومباي »

***

وبينما كنت في هذه اللجة المضطربة سمعت ان محامياً من المعروفين سيسافر الى انجلترا على سفينة ستغادر الميناء في اليوم الرابع من شهر سبتمبر . فبادرت الى الاصدقاء الذين اوصاهم بي أخي ، فوافقوا على ان اتهز فرصة السفر مع هذا المحامي ولم يكن لديّ من الوقت ما اسمح بضياعه . فأبرقت الى أخي استأذن فاذن . وسألت قريبي ان يعطيني المال الذي تركه أخي معهُ . ولكنهُ استمسك بالامر الذي أصدره رئيس الطائفة وقال انهُ لا يريد ان يطرد كما طردت . وبعد لأي استطعت ان اسوي الامر بعد الالتجاء الى صديق لوالد لما استطعت ان آخذ مالي واحصل على نفقات سفري . ووصلت الى سوثمبترن حوالي آخر شهر سبتمبر ١٨٨٨